رعاية المسنين .. مسئولية من ؟!

وأنا أتابع أحد البرامج الثقافية بإحدى القنوات الفضائية، شد انتباهى كلمات مؤثرة لا تزال عالقة بذهنى حتى الآن. وهى كلمت لشيخ مشلول، طاعن فى السن، وعلامات الحزن والأسى بادية عليه.. لقد أودعه ابنه مأوى العجزة والمسنين، بعد أن أضحى شخصا غير قادر على العمل، ولا حول له ولا قوة.

وكم تأثرت حينما قال هذا العجوز البائس وهو يبكى، وتعلوه نبرات الحسرة والألم: «أتمنى أن يأتى اليوم الذى يرى فيه ابنى مثل هذا اليوم الذى أعيشه»..

بقلم

د. ضياء الدين محمد أحمد

باحث وكاتب إسلامى

نعم لقد تألمت كثيرا لهذه الكلمات التى صدرت من شيخ صُدم فى أعز ما يملك، فى ابنه الذى تخلى عنه فى مرحلة كان من المفروض أن يلقى فيها كامل الرعاية والحنان.

وكم تحسرت على هذا الابن العاق الذى وجد فى مأوى العجزة والمسنين حلا سائغا يريحه من أعباء رعاية والده.. وهنا أقول: إن مأوى العجزة والمسنين وإن كان ضروريا فى بعض الحالات، إلا أنه يبقى عقوبة قاسية يرتكبها الأبناء الجهلة. عديمو الضمير والخلق فى حق آبائهم، بعد أن أصبحوا لا يفكرون إلا فى أنفسهم، فالماديات قد استهوتهم، وملكت عقولهم فأنستهم ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، متخلين بذلك عن كل مبادىء ديننا الحنيف الذى يدعو فى كثير من نصوصه القرآنية والحديثية إلى الترابط والتلاحم الأسرى، لأن فيه الخير الكثير لكلا الطرفين.

ومما لا شك فيه أن المسن يحس بالدفء العائلى عندما يكون محاطا بأبنائه وأحفاده، وكذلك باستمرار دوره الفعال كموجة أبوى، يبث فى أبنائه وأحفاده القيم الدينية المثلى، والسلوكيات الاجتماعية القويمة، التى تمكن من إشاعة المثل والمبادىء الإسلامية الأصيلة.

إلا أنه عندما نلاحظ انتشار دور العجزة والمسنين بشكل كبير فى مجتمعاتنا الإسلامية، فإن ذلك يدل على أن النفس البشرية أصبحت تتردى من السيىء إلى الأسوأ، بسبب طغيان الأنانية والتهرب من المسئولية ، بل وبسبب جعل الإسلام دينا ينتسب إليه دون أن يكون له أثر فى حياة الفرد، فكان طبيعيا أن تكون النتيجة خسارة فادحة للأسرة المسلمة والمجتمع المسلم.

وأؤكد هنا على أن الذى يتخلى عن والديه مهما كانت الأسباب التى دفعته إلى ذلك . سيلقى حتما الوضع نفسه مع أبنائه عند عجزه، وسيذوق مرارة الندم والحسرة، وسيكون أكثر إحساسا بالحرمان العاطفى الذى باشره فى حق أبيه.

لذلك نقول ونكرر دائما: إن تعاليم ديننا الحنيف هى البلسم الشافى لكل ما يتعلق بحياتنا، فهى تحض على الرعاية الكاملة، والمعاملة الطيبة، والاحترام الواجب للوالدين، وإن كانا غير مسلمين، يقول تعالى فى كتابه الكريم: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت:٨)، وإذا كان هذا فى شأن غير المسلمين، فالأولى أن يكون الاهتمام بالوالدين المسلمين أكبر وأشمل ، فقد أفنيا شبابهما وحياتهما من أجل سعادة أبنائهما.. يقول تعالى فى محكم كتابه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٣و٢٤).

إذ يبقى المسن بمثابة الصدر الحنون لكل أسرة صغيرة، بل هو البركة التى يجب أن يتشبث بها كل منا فى حياته، وأن نعمل بالأساس على تقليص ذلك التناقض القائم بين جيلى الآباء والأبناء، لأن ذلك يعد أخطر ما نواجه فى عصرنا الحالى، نظرا لغياب (الأب المسلم القدوة)، وبالرغم من كل هذا فإننا فى مجتمعاتنا الإسلامية لم نصل بعد إلى مستوى المجتمعات الغربية التى طغت عليها الجوانب المادية ، وأودت بها إلى الانحلال على كل المستويات.

إن مجتمعاتنا . ولله الحمد . مازالت تعرف نوعا من الدفء العائلى المطلوب، لكن لابد . بالمقابل . من دق ناقوس الخطر عندما نلاحظ أنموذجات مؤثرة متشابهة للتى وردت فى البرنامج الذى شاهدته والذى أشرت إليه فى مستهل هذا المقال المتواضع، فعلينا إذن أن نحكم الإسلام فى جميع جوانب حياتنا الدينية والدنيوية، بهدف إيجاد الأرض الطيبة والمناخ المناسب الذى يعمل على تمتين الروابط الأسرية والاجتماعية.